كتاب (مباحث في علوم القرآن) للدكتور صبحي الصالح

دراسة تحليلية نقدية

أ. سيرين عمر صبَّاغ*

المُقدِّمة

الحمد لله ربّ العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإنّ علوم القرآن من أشرف العلوم وأجلّها قدراً، وأكثرها نفعاً، وإنّ شرف العلم بمتعلقه فكيف إذا كان هذا العلم متعلقاً بالقرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد. ولقد بذل العلماء منذ القديم جهودهم في العمل بهذه العلوم، والتصنيف فيها لخدمة كتاب الله عز وجل، ولقد أكرمني الله تعالى بدراسة كتاب اشتمل على أنواع من هذه العلوم وهو كتاب (مباحث في علوم القرآن) للدكتور صبحي الصالح رحمه الله تعالى، فأرجو من المولى الكريم أن يوفقني لما فيه النفع والصواب.

أهمية البحث وسبب اختياره

إنّ تناول أيّ كتاب من كتب علوم القرآن بالدراسة التحليلية النقدية يوجب

---

* سوريا، جامعة دمشق.

على الباحث النظر والتدقيق فيه بنظرة موضوعية علمية بعيدة عن الأهواء والرغبات، بالإضافة إلى أنّ هذه الدراسة تدفع الباحث إلى القيام بواجبه نحو دينه، ونحو ما صُنِّف في هذه العلوم عن طريق إبعاد ما علق بهذه المصنفات من شوائب تعكِّر صفوها، واستخلاص مزاياها ومحاسنها، وكلّ ذلك لأجل تنبيه القارئ إلى ما وقع به المؤلفون من الأخطاء والهفوات، فلهذه الأسباب المهمة اخترت هذا البحث لعلّي أتمكن من تحقيق واجبي أمام كتاب الله تعالى وأمام ما قدّمه علماؤنا الأفاضل رحمهم الله تعالى.

منهج البحث

اعتمدت في بحثي على المنهج التاريخي والوصفي، وذلك بترجمة حياة المؤلِّف، ووصف كتابه، ثمّ أتبعته بالمنهج الاستقرائي التحليلي النقدي، حيث قمت باستقراء المسائل التي تحتاج إلى المناقشة والرد في كتاب د. صبحي الصالح، وتحليل مضمونها، ثم تناولت كل مسألة بالمناقشة والرد.

خطّة البحث

قسمت بحثي إلى مقدمة ومبحث تمهيدي، وأربعة مباحث أساسية، وخاتمة وفق الخطة الآتية:

أولاً: المقدمة: وتشتمل على أهميّة البحث وسبب اختياره، ومنهج البحث، ثم خطّة البحث التي نحن بصددها الآن.

ثانياً: المبحث التمهيدي وفيه:

1. تعريف علوم القرآن.
2. أوّل من ألّف في علوم القرآن.
3. فائدة علوم القرآن.

ثالثاً: المبحث الأول: التعريف بالمؤلِّف ويتضمن المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: سيرته الذاتية.

المطلب الثاني: حياته العلمية وآثاره.

رابعاً: المبحث الثاني: التعريف بالمؤلَّف ويتضمن ستة مطالب:

المطلب الأول: سبب تأليف الكتاب.
المطلب الثاني: منهج المؤلِّف في تقسيم كتابه.
المطلب الثالث: عدد أنواع علوم القرآن في كتابه.
المطلب الرابع: مصادره في هذا الكتاب.
المطلب الخامس: تأثره بمن سبقه.
المطلب السادس: أثر كتابه في من أتى بعده.

خامساً: المبحث الثالث: مناقشة المؤلف في بعض المسائل، وفيه ثلاث عشرة مسألة.

سادساً: المبحث الرابع: المحاسن والمآخذ على كتابه.

سابعاً: الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات المقترحة.

المبحث التمهيدي

وفيه:

1. تعريف علوم القرآن

عرّفها الزرقاني بأنها: «المباحث المتعلقة بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه ونحو ذلك»(1). وبالنظر في هذا التعريف نجد أنه قد تناول أنواع علوم القرآن، ولقد ذكر الدكتور محمد يوسف الشُّربجي بأنه يمكننا اختصار هذا التعريف بقولنا: «مباحث كلية تتعلق بالقرآن الكريم من عدّة نواح، يمكن عدّ كل منها علماً قائماً بذاته»، ومعلوم أن النواحي المتعلقة بالقرآن هي: نزول القرآن الكريم وجمعه وترتيبه وتدوينه وأسباب نزوله ومكيّه ومدنيّه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وأساليب خطابه

1- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، ط 3، 1372 هـ (1/ 20).

وإعجازه، ونحو ذلك(2).

2. أوّل من ألّف في علوم القرآن

تفاوتت آراء العلماء والباحثين وتباينت وجهات نظرهم في تحديد أول من ألّف في علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي فنرى مثلاً الشيخ الزرقاني يُرجع التأليف في علوم القرآن إلى بداية القرن الخامس الهجري على يد الحوفي(3) في كتابه: (البرهان في علوم القرآن). ولقد حقّق الدكتور محمد يوسف الشُّربجي هذه المسألة فقال: «والظاهر من هذا الكتاب أنه كتاب في تفسير القرآن لا في علوم القرآن ... عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات ... ثمّ إنّ ضخامة هذا الكتاب وسعة حجمه يستبعد أن يكون في علوم القرآن؛ لأن كل من ابتدأ أمراً فإنه يكون صغيراً ثم يكبر وقليلاً ثم يكثر»(4)، وبعد طول بحث ودراسة للدكتور الشُّربجي وجد أنّ أوّل من ألّف في علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي هو ابن الجوزي (ت: 597 هـ)(5) في القرن السادس في كتابه: (فنون الأفنان في عيون القرآن) وهو نفسه كتاب (عجائب علوم القرآن) الذي نُسِب إلى ابن الأنباري(6).

2- مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، علوم القرآن الكريم تاريخه و تطوره وأول من ألف فيه، المجلد: 12، العدد الأول: 1996 م، ص 148.

3- أبو الحسن، علي بن إبراهيم بن سعيد صاحب إعراب القرآن، كان إماماً في العربية و النحو و الأدب، ت: 430هـ ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير: دمشق، ط: 1، 1406هـ، (3/ 247).

4- المرجع نفسه، ص 152، 153.

5- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي، يصل نسبه إلى سيدنا أبي بكر ﷺ، صاحب التصانيف الكثيرة في التفسير و الحديث والفقه، وعظ من صغره و فاق فيه الأقران، ت: 597هـ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، (4/ 329وما بعدها).

6- انظر: مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، علوم القرآن الكريم تاريخه و تطوره وأول من ألف فيه، المجلد: 12، العدد الأول: 1996، ص 160، و ابن الأنباري هو أبو بكر =

3. فائدة علوم القرآن

ترجع فائدته إلى الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم، وإلى التسلح بالمعارف القيِّمة فيه، استعداداً لحسن الدفاع عن حمى الكتاب العزيز، ثمّ إلى سهولة خوض غمار تفسير القرآن الكريم به كمفتاح للمفسرين، فمثله من هذه الناحية كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث(7).

المبحث الأول: التعريف بالمؤلِّف

ويتضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: سيرته الذاتية

اسمه: صبحي إبراهيم الصالح.

أصله ومولده: ولد في طرابلس الشرق عام 1926 م، 1345 هـ(8) من عائلة تركية الأصل نبغ فيها عدد من العلماء مثل أخيه الشيخ ناصر رئيس المحاكم الشرعية بلبنان وطه الصابونجي مفتي لبنان الشمالي(9).

وفاته: اغتيل في السابع من تشرين الأول في بيروت عام 1986م - 1407هـ(10).

=

محمد بن القاسم بن بشار النحوي اللغوي، ت: 328هـ، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، (2/ 315).

7- الزركشي، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، جمال حمدي الذهبي، وإبراهيم عبد الله الكردي، دار المعرفة: بيروت، لبنان، ط 2، 1415هـ، 1994 م، (1 / 34).

8- يوسف، محمد خير رمضان، تتمة الأعلام للزركلي يليه المستدرك الأول والثاني، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط: 1422هـ، 2002 م، المجلد الأول ص 241، 242 و راجع الموسوعة الحرة، ويكيبيديا www. wikipedia. org فقد ورد أن عام ولادته في 1925 م والصحيح ما ذكر في تتمة الأعلام وذُكر أيضاً في ذيل الأعلام.

9- العلاونة، أحمد، ذيل الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار المنارة، ط: 1، 1418 هـ- 1998 م، ص 103.

10- يوسف، محمد خير رمضان، تتمة الأعلام للزركلي، ص 241، 242.

المطلب الثاني: حياته العلمية وآثاره

أ. **طلبه للعلم:** تلقى دراسته الثانوية المدنية والشرعية في دار التربية والتعليم في عام 1947 م، حصل على الشهادة العالية (الإجازة) من كلية أصول الدين، كما نال الشهادة العالمية عام 1949 م. وفي عام 1950 م سافر إلى فرنسا للدراسة، ونال دكتوراه الدولة في الآداب عام 1954 م(11).

ب. **المناصب التي تقلدها:** عمل أستاذاً للإسلاميات وفقه اللغة في الجامعة اللبنانية، كما تولى عدداً من المناصب آخرها رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى، ورئيس اللجنة العليا للقرن الخامس عشر الهجري في لبنان، والأمين العام لرابطة علماء لبنان، كما كان عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة وأكاديمية المملكة المغربية والمجمع العلمي العراقي في بغداد ولجنة الإشراف العليا على الموسوعة العربية الكبرى. منحته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جائزة (التفكير الاجتهادي في الإسلام)(12).

ج. **شيوخه:** لم أجد –من خلال بحثي– من ذكر شيوخ المؤلِّف إلا أن (د. صبحي) ذكر في الطبعة الأولى لكتابه (مباحث في علوم القرآن)(13) إهداءً لأستاذه عبد الكريم عويضة(14).

د. **مؤلفاته:** له العديد من المؤلفات منها:

1. الإسلام والمجتمع العصري، بيروت: دار الآداب، 1398 هـ.
2. النظم الإسلامية: نشأتها وتطورها، بيروت، دار العلم للملايين، 1385 هـ.
3. المرأة في الإسلام، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1400 هـ.

11- يوسف، محمد خير رمضان، تتمة الأعلام للزركلي، ص: 241، 242.

12- المرجع نفسه، ص: 241، 242.

13- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، مطبعة الجامعة السورية، ط: 1، 1377 هـ- 1958 م.

14- الشيخ المفتي عبد الكريم تسلم مهام الإفتاء الديني حتى العام 1955 نائباً عن المفتي في المجلسين الإداري و العلمي للأوقاف له مؤلفات و رسائل في الفرائض ومنظومات شعرية. راجع موقع www. daralfatwa. org.

4. نهج البلاغة: وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1387 هـ.
5. أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية (تحقيق وتعليق)، ط 2، بيروت: دار العلم للملايين، 1401 هـ.
6. شرح الشروط العمرية (مجرداً من أحكام أهل الذمة لابن القيم)، 1391هـ.
7. دراسات في فقه اللغة، دمشق: مطبعة جامعة (دمشق) 1379 هـ (وصدرت ط 5 عام 1993 م).
8. مباحث في علوم القرآن، ط 14، بيروت: دار العلم للملايين 1402 هـ.
9. الإسلام ومستقبل الحضارة، ط 2، دمشق: دار قتيبة، بيروت: دار الشورى 1410 هـ
10. منهل الواردين: شرح رياض الصالحين للنووي، ط 5، بيروت: دار العلم للملايين، 1397 هـ.
11. فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، لويس غردية، جورج قنواتي (ترجمة بالاشتراك مع فريد جبر)، ط 2، بيروت: دار العلم للملايين، 1398- 1403 هـ.
12. علوم الحديث ومصطلحه: عرض ودراسة، ط 8، بيروت: دار العلم للملايين، 1422 هـ.
13. معالم الشريعة الإسلامية، ط 2، بيروت: دار العلم للملايين، 1398 هـ(15).

هـ. **بعض أقواله وآرائه:** هناك آراء للدكتور (صبحي الصالح) تخالف آراء الجمهور واجتهادهم منها:

1. أنه دعا إلى فتح باب الاجتهاد قائلاً: « إن حاجة الأمة إلى الاجتهاد بديهية لم تكن في نظر القدامى تقبل الجدل، حتى تحتمل التأجيل عند المعاصرين، وإن المحققين من علمائنا شاركوا في مقاومة التقليد، وفي

15- يوسف، محمد خير رمضان، تتمة الأعلام للزركلي، ص 241 -242.

دعوة الناس إلى الاجتهاد وإن كانوا لم يفتحوا بابه على مصراعيه، إلا للقادرين عليه. وقال: هذه شريعة عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، وإننا لن نكون بحاجة إلى أشخاص المجتهدين وألقابهم ومراتبهم، بقدر حاجتنا إلى نوعيّة تفكيرهم واجتهادهم واختصاصهم وإننا لن نقيم وزناً لما فرضوه من الشروط التعجيزية على المجتهد المستقل الذي اختار أن ينفرد بقواعد ومناهج لنفسه من جميع وجوه التشريع ... إلخ »(16).

2. « تبنّى اجتهاد من رأى من العلماء إباحة صناديق التوفير والقرض الإسلاميين بعد إجراء تعديل جزئي على صياغة بعض القواعد الفكريّة والشروط الاحترازيّة الاجتهاديّة وقال: لا يجوز أن نسوّي بين المعاملات النافعة لآخذ المال وصاحب المال معاً وبين الربا الجلي المركّب المخرّب للبيوت »(17).

المبحث الثاني: التعريف بالمؤلِّف

وفيه:

المطلب الأول: سبب تأليف الكتاب

إنّ السبب المباشر لتأليف هذا الكتاب -مباحث في علوم القرآن- في طبعته الأولى هو جمع المحاضرات التي ألقاها (د. صبحي) في جامعة دمشق على طلاب اللغة العربية لتكون مفتاحاً لهم في فهم الدروس العمليّة في التفسير ولتبسيط طائفة من أمهات المسائل القرآنية التي قد يكون من العسير على الباحث العصري في شؤون الإسلام والقرآن أن يرجع إلى الكتب القديمة ليعثر عليها. أما الطبعة الجديدة فإنّ السبب والدافع لها هو إضافات وزيادات في بعض الأمور التي لم تكن موجودة في الطبعة الأولى، وصوغ بعض العبارات بأسلوب منقح أكثر أناقة وإشراقاً.

16- الموسوعة الحرة، ويكيبيديا، يوم الثلاثاء 24 / 11 / 2009 م.

17- المرجع نفسه.

ولقد أشار (د. صبحي) إلى هذه الأسباب في الكلام عن الطبعة الجديدة فقال: «وإني بيني وبين نفسي لأعرف أن الكتاب -في هاتيك الطبعة الأولى- لم يكن يزيد على دروس جامعية لممتُ شتاتها مما ألقيته خلال عامين على طلاب (شهادة علوم اللغة العربية) في كلية الآداب بجامعة دمشق، ولم يكن لي مطمع في هذه الدروس النظرية أوسع من أن تكون في أيدي أولئك الطلاب مفاتيح الدروس العمليّة في التفسير»(18). ثم يتابع قوله: «أما هذه الطبعة -أي الجديدة- فيكاد كل بحث فيها يكون جديداً إن لم يكن فيما ألحق به من زيادات ففي صوغ بعض عباراته بأسلوب منقح أكثر أناقة وإشراقاً»(19).

المطلب الثاني: منهج المؤلِّف في تقسيم كتابه

وفقاً لما ذكره (د. صبحي) في مقدمته فإننا نرى أنّه قسّم كتابه إلى مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة فقد اشتملت على الهدف من تأليف الكتاب وعناية القدامى في هذا العلم وفضلهم على من أتى بعدهم، ثم عرض لبعض المآخذ التي تؤخذ على القدامى في بعض أنواع علوم القرآن كالناسخ والمنسوخ وأسباب النزول.

وأتبع المقدمة بأربعة أبواب، وضمّن كل باب عدة فصول، فالباب الأول أفرده بفصوله الثلاثة للقرآن والوحي، وأسهب في تفسير ظاهرة الوحي، كما أسهب في وصف تنجيم القرآن وأسراره. وانتقل في الباب الثاني إلى تاريخ القرآن، وضمّن فصوله الثلاثة وصفاً لجمع القرآن وكتابته، وردّ على كثير من شبهات المستشرقين والمستعجمين، وناقش موضوع الأحرف السبعة، وأضاف بعض التحقيقات الجديدة في نشأة الرسم القرآني وتطوره. ثمّ قصر الباب الثالث بفصوله الثمانية على (علوم القرآن) وكان لزاماً -كما يذكر د. صبحي- أن يستغرق أكثر من نصف الكتاب؛ لأنّه له صلة باسم الكتاب، ولقد كان في هذا الباب زيادات

18- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين: بيروت، ط17، 1988 م، ص 5، 6.

19- المرجع نفسه.

شافية أهمها: (معضلة الناسخ والمنسوخ) التي لم يتعرض لها المؤلف قطّ حين ظهر الكتاب لأول مرة. وأفرد المؤلف (التفسير) في باب رابع اعتناءً به وإعظاماً لشأنه، وضمّ إليه أقرب البحوث شبهاً به وهو (الإعجاز)، وضمّن هذا الباب أربعة فصول: تحدث فيها عن نشأة التفسير وتطوره، وكيف يتيسر تفسير القرآن بالقرآن، وربط هذا كله بالمفهوم الفني الحديث للإعجاز محاولاً بث الحياة في مصطلحات البلاغة القديمة، وَرَدَّ سحر القرآن بالمقام الأول إلى إيقاعه الداخلي، وخصّ هذا الإيقاع بفصلٍ جديد لِيُكَوِّنَ فكرة عن استجماع القرآن كل مزايا النثر والشعر بأسلوب فذّ عُجاب[20].

أما الخاتمة فقد اشتملت على تلخيص الأنواع والأفكار المهمة التي عُرِضَت خلال فصول الكتاب.

المطلب الثالث: عدد أنواع علوم القرآن التي ذكرها في كتابه

إن عدد الفصول التي ذكرها (د. صبحي) في كتابه 18 فصلاً تندرج كل مجموعة منها تحت بابٍ واحد وهذه الفصول شملت -من خلال ملاحظة عناوينها- 18 نوعاً من أنواع علوم القرآن وهو عدد قليل إذا ما قورن مع الأنواع التي ذكرها السيوطي في (الإتقان) وهي 80 نوعاً أو مع الأنواع التي ذكرها الزركشي في (البرهان) وهي 47 نوعاً.

وهذه الأنواع هي:

1. أسماء القرآن وموارد اشتقاقها.
2. ظاهرة الوحي.
3. تنجيم القرآن وأسراره.
4. جمع القرآن وكتابته.
5. المصاحف العثمانية في طور التجويد والتحسين.
6. الأحرف السبعة.
7. لمحة تاريخية عن علوم القرآن.

---

[20] انظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن ص 6 -7 -8.

8. علم أسباب النزول.
9. علم المكي والمدني.
10. لمحة خاطفة عن فواتح السور.
11. علم القراءات ولمحة عن القراء.
12. علم الناسخ والمنسوخ.
13. علم الرسم القرآني.
14. علم المحكم والمتشابه.
15. التفسير: نشأته وتطوره.
16. القرآن يفسّر بعضه بعضاً.
17. إعجاز القرآن (تشبيه القرآن واستعاراته – المجاز والكناية في القرآن).
18. الإعجاز في نغم القرآن.

سبب الاقتصار على هذه الأنواع

إن من أهم الأسباب التي دعت المؤلِّف للاقتصار على هذه الأنواع ما يأتي:

1. طبيعة المقررات والمناهج الدراسية: فلقد ذكرت سابقاً أن سبب تأليف الكتاب هو جمع للمحاضرات التي ألقاها (د. صبحي) في جامعة دمشق على طلاب شهادة اللغة العربية، فكان من الطبيعي لهذه المحاضرات أن تبتعد عن الشمول والاستيعاب، وتقترب من الاقتصار على تبسيط أمهات المسائل المهمة التي تساعد الطالب على فهم أهم الأنواع التي تتعلق بعلوم القرآن، ولقد صرح (د. صبحي) بذلك في عدة مواضع من كتابه منها قوله في مقدمته: «أقرّ بأنّي تناولت أمهات المسائل، ولم أفصل القول في شيء منها تفصيلاً»(21). وقوله في خاتمة مقدمته: «وبعد، فتلك مباحث في علوم القرآن لاننمي إليها السعة والشمول، ولا ندعي لها التفصيل والاستيعاب، إنما هي طائفة من المسائل المهمة التي نرجو ألا يجهلها أو يتجاهلها عربي ينطق بالضاد أو مسلم يهتف بهذا الدين الحنيف»(22).

21- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص9.

22- المرجع السابق، ص13.

2. طريقة المؤلِّف في تقسيمه للأنواع: فالقارئ يلاحظ أن المؤلِّف لم يقتصر على 18 نوعاً، وإنما ضمَّ إليها أنواعاً أخرى ولم يفردها في التبويب لتشابهها في الموضوع، كما فعل في فصل: علم المكي والمدني، فقد ضمَّ إليه أنواعاً أفردها السيوطي في (الإتقان) في مباحث خاصة كالسفري والحضري، وما نزل ليلاً وما نزل نهاراً، وما نزل صيفاً وما نزل شتاءً.

المطلب الرابع: مصادره في هذا الكتاب

إن أهم مصادر المؤلف هي:

1. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جزءان، مطبعة حجازي بالقاهرة، ط 3، 1360هـ 1941 م.
2. أسباب النزول (للواحدي)، بهامشه (الناسخ والمنسوخ) لأبي القاسم هبة الله بن سلامة، القاهرة 1351 هـ.
3. إعجاز القرآن (للباقلاني) القاهرة، السلفية 1349 هـ.
4. بديع القرآن (لابن أبي الإصبع) القاهرة 1377 هـ- 1957 م.
5. البرهان في علوم القرآن (للزركشي) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، أربعة أجزاء، 1376هـ 1957م.
6. بغية الوعاة (للسيوطي) القاهرة، 1326هـ.
7. بيان إعجاز القرآن (للخطابي) مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، القاهرة، دار المعارف.
8. تأويل مشكل القرآن (لابن قتيبة) القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1373هـ.
9. التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن (للشيخ طاهر الجزائري) طبع المنار بالقاهرة 1934 م.
10. دلائل الإعجاز (لعبد القاهر الجرجاني).
11. الرسالة الشافية في إعجاز القرآن (للجرجاني).
12. الفهرست (لابن النديم).
13. المصاحف (لابن أبي داوود).
14. مناهل العرفان في علوم القرآن (للزرقاني).

15. النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن (محمد عبد الله دراز).
16. الناسخ والمنسوخ (لأبي جعفر النحاس).
17. النكت في إعجاز القرآن (للرماني).

المطلب الخامس: تأثره بمن سبقه

يلاحظ القارئ من خلال قراءته تأثر (د. صبحي) بالقدامى من خلال الإحالات الكثيرة التي لا تخلو صفحة منها في كتابه، وخاصة الإحالات إلى كتاب (البرهان) للزركشي و(الإتقان) للسيوطي، ولا غرابة في ذلك إذ إن كليهما كانا مورداً له ولمن سبقه من المؤلفين كلٌّ ينهل منهما بقدر حاجته فهما الأساس واللبنة الأولى التي يعتمد عليها سائر المؤلفين في علوم القرآن. و(د. صبحي) يعترف بفضل من سبقه في هذا العلم، ويقرُّ باستفادته منهم في أمهات المسائل فيقول: «نحاول بكتابنا هذا تبسيط عدد لا يستهان به من المباحث القرآنية التي نحن فيها كلها عالة على سلفنا الصالح وعلمائنا الأتقياء الأبرار، نتفقه بآثارهم، ونستضيء بأنوارهم، ونجد الهدى والرشد عندهم»(23).

المطلب السادس: أثر كتابه في من أتى بعده

من أبرز العلماء الذين تأثروا بالدكتور صبحي الصالح:

1. د. محمد سعيد رمضان البوطي فلقد تأثر به في:

أ. جمع القرآن وكتابته: إذ ينقل ما قاله في الصحف التي كانت عند حفصة رضي الله عنها من أن مروان بن الحكم أحرقها بعد وفاتها(24).

ب. رسم القرآن والمراحل التحسينية التي تدرج فيها:

يأخذ عن د. صبحي أنه كان للحجاج عمل عظيم في رسم القرآن بقطع

23- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط: 1، 1377 هـ- 1958 م، ص5.

24- انظر: د. البوطي، محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن، مكتبة الفارابي، ط 3، 1392 هـ، 1972 م، ص 58

النظر عن تفاصيل ما قام أو أمر به(25).

وعند الحديث عن طباعة القرآن أخذ عنه القول بأن القرآن ظهر مطبوعاً للمرة الأولى في البندقية ...، ثم ظهرت أول طباعة إسلامية في سانت بترسبوغ بروسيا، ثم عُنيت الأستانة في سنة 1877هـ بهذا الأمر العظيم(26).

2. د. نور الدين عتر:

أ. أخذ عنه القول بأنه كان يوجد نسخة من المصحف العثماني في الجامع الأموي بدمشق قبل سنة 1310 هـ حتى كان الحريق الكبير الذي أصاب المسجد الأموي سنة 1310هـ واحترق فيه هذا المصحف الجليل(27).

ب. تأثر به عند الحديث عن نظرية الإعجاز بالتصوير الفني إذ يقول: إنّ النتيجة التي انتهى إليها بحث التصوير الفني في القرآن لعلها كما قال الدكتور صبحي الصالح: «أن تكون أصدق ترجمة لمفهومنا الحديث لإعجاز القرآن لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفني الخالص في كتاب الله وتمكّن الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم والاستمتاع به بوجدانهم وشعورهم، ولا ريب أن العرب المعاصرين للقرآن دهِشوا قبل كل شيء بأسلوبه الذي حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا حتى إذا فهموه أدركوا جماله ومسّ قلوبهم بتأثيره»(28).

3. د. عدنان محمد زرزور تأثر به في مسألة:

أ. مراعاة الشهود عند جمع القرآن الكريم، ومراعاة التواتر في حفظ آخر

25- د. البوطي، محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن، ص 66

26- المرجع نفسه.

27- انظر: د. عتر، نور الدين، التفسير وعلوم القرآن، منشورات جامعة دمشق، ط 3، 1417، 1418 / 1997، 1998 م، ص258.

28- د. عتر، نور الدين، القرآن الكريم والدراسات الأدبية، المطبعة الجديدة: دمشق، 1404، 1405 هـ، 1984، 1985 م، ص163، 164

سورة التوبة عند عدم وجود الشهود على كتابتها بين يدي الرسول ﷺ(29).

ب. أخذ عنه من فصل الإعجاز في نغم القرآن(30).

4. د. فضل حسن عبّاس:

أخذ منه الشبهة التي أوردها المستشرق بلاشير على جمع القرآن الكريم في الإساءة لسيدنا عثمان ﷺ من خلال التشكيك بنيته، وردَّ د. صبحي عليها(31).

المبحث الرابع: مناقشة المؤلف في بعض المسائل

وفيه ثلاث عشرة مسألة:

المسألة الأولى: هل لفظ (قرأ) آرامي أم عربي؟

عرض المسألة: يذكر د. صبحي أن لفظ (قرأ) بمعنى (تلا) أخذها العرب من الآرامية ثمّ استعملوها قبل الإسلام فعرّبت، وجاء الإسلام واستعملها في تسمية الكتاب الكريم بالقرآن أو الكتاب، فأصل لفظ القرآن والكتاب آرامي(32). المناقشة والرد: إن هذا القول هو زعم لبعض المستشرقين، وليس ثمة خلاف بين مصادر اللغة في أصل هاتين التسميتين اللغوي، وذلك يدل على بطلان ما زعموه من إرجاع مادتي (قرآن) و(كتاب) إلى أصل آرامي، وهو زعم باطل يدل على ذلك عمق استعمال العرب لأصل التسميتين في صميم حياتهم العريقة(33).

المسألة الثانية: ما الحكمة من اختيار القرآن الكريم لفظ (الوحي)؟

عرض المسألة: يرى د. صبحي أن القرآن اختار لفظ الوحي لتحصل

29- انظر: د. زرزور، عدنان محمد، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، دار القلم: دمشق، الدار الشامية: بيروت، ط: 1، 1416هـ 1995م، ص114.

30- انظر: المرجع نفسه، ص 179، 183، 184.

31- انظر: د. عباس، فضل حسن، إتقان البرهان في علوم القرآن، دار النفائس: الأردن، ط: 2، 1430هـ، 2010م، (1/ 296).

32- انظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص19، 20

33- انظر: د. عتر، نور الدين، القرآن الكريم و الدراسات الأدبية، ص8.

المشابهة اللفظية في مدلول الوحي عند جميع الأنبياء فيقول: «لذلك حرص القرآن على تسمية ما نزل على قلب محمد وحياً، ليشابه مدلول الوحي بين جميع النبيين تشابه اللفظ الدال عليه»(34).

المناقشة والرد: لقد ردّ عليه د. نور الدين بقوله: فهذا القول يجعل المسألة مسألة تشابه في اللفظ، فكأن لفظ الوحي كان معروفاً في اللغات السابقة، فمن قال ذلك وأين وفي أيّ مرجع علمي أو لغوي غير عربي نجد هذا اللفظ (وحي) أو ما يدل على معناه دلالته على معناه الذي عرفناه في اللغة العربية، ذلك ما لا يمكن أن يقيم الكاتب عليه أي دليل. إنما اختار القرآن لفظ (وحي) تمشياً مع أسلوبه المعجز في اختيار الكلمة ثمّ الجملة وهكذا، وهذه الكلمة أدق تعبير عن قضية الوحي؛ لأنها تحتوي على مضمونه كاملاً، فالوحي إعلام وسرعة وخفاء، وكل هذه قد اجتمعت في إبلاغ الله رسله ما يشاء إبلاغهم(35).

المسألة الثالثة: مسألة العفو عن النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: 43].

عرض المسألة: استدل (د. صبحي) بعتاب الله لنبيه في الآية على أن الوحي ليس إلهاماً أو حالة من اللاشعور؛ وذلك لأن آيات العتاب تفرق بين صفة الله المتكلم منزل الوحي وبين صفة رسوله المخاطب متلقي الوحي.

ويعلق (د. صبحي) على الآية فيقول: «ومن المعلوم أن العفو لا يكون إلا عن ذنب كما أن المغفرة لا تكون إلا بعد ذنب وقد صرحت الآية بهذا في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: 1-2]، فمن العجيب -بعد هذا القول القرآني الصريح- أن يحاول بعض المفسرين -كالرازي- أن يثبتوا أن لفظ العفو لا يوحي بالذنب وأن الذي عاتب به الله نبيه إنما كان ارتكابه خلاف الأولى وهو -كما يقول

34- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص22.

35- د. عتر، نور الدين، القرآن الكريم والدراسات الأدبية، ص22.

رشيد رضا- جمود مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاص في معنى الذنب وهو المعصية، وما كان ينبغي لهم أن يهربوا من إثبات ما أثبته الله تعالى في كتابه تمسكاً باصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له ولمدلول اللغة أيضاً »(36).

المناقشة والرد: يرد الرازي على من يقول بهذا القول بقوله: لا نسلم أن قوله (عفا الله عنك) يوجب الذنب، ولِمَ لا يجوز أن يقال: إن ذلك يدل على مبالغة الله في تعظيمه وتوقيره كما يقول الرجل لغيره إذا كان مُعظماً عنده (عفا الله عنك ما صنعت في أمري، ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي؟ وعافاك الله ما عرفت حقي) فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم(37). أما استدلال (د. صبحي) بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2] على إثبات القرآن الذنب للرسول ﷺ فالجواب عنه: أن المراد من الآية هو الآتي: إنا فتحنا لك ليعرف أنك مغفور لك، معصوم، فإنّ الناس علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له. (من ذنبك) إما المراد ارتكاب خلاف الأولى، أي: ترك الأفضل أو ذنوب المؤمنين أو المراد الصغائر، فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد(38).

وبعد هذا النقاش يتبيّن للقارئ ضعف ما قاله (د. صبحي)؛ وذلك لأنّ إذن الرسول للبعض بالقعود عن القتال في غزوة تبوك هو من قبيل الاجتهاد في الحروب ومصالح الدنيا وللنبي الاجتهاد عند سكوت الشارع عن الحكم فإذا اجتهد ولم يصب باجتهاده الحق الثابت في علم الله تعالى لا يكون ذلك ذنباً ومن ثم يكون عفو الله عن فعله لارتكابه خلاف الأولى وليس العفو عن ذنب، لأن النبي ﷺ معصوم عن الذنوب.

المسألة الرابعة: مسألة نزول القرآن الكريم

عرض المسألة: إن د. صبحي تبنّى قول الشعبي بأن القرآن ابتدأ نزوله في

36- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص30.

37- الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية: طهران، ط: 2، (16/ 73).

38- المرجع نفسه، (28/ 78).

ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات ثم قال: «والشعبي يجمع في هذا الرأي بين قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: 1] وقوله: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: 106]، وهو فهم سديد لا يتضارب مع إخبار الله بإنزال كتابه في ليلة مباركة، وفي شهر رمضان، إذ يكون المراد أنه تعالى ابتدأ إنزاله في ليلة مباركة، ووصف هذه الليلة بأنها ليلة القدر وهي إحدى ليالي رمضان، كما في قوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة: 185]، ثم استمر نزوله نجوماً بعد ذلك متدرجاً مع الوقائع والأحداث» ولا يوافق د. صبحي قول الجمهور بأن للقرآن تنزلات ثلاثة فيقول: «و لسنا نميل إلى الرأي القائل: إن للقرآن تنزلات ثلاثة، الأول: إلى اللوح المحفوظ، والثاني: إلى بيت العزة في السماء الدنيا، والثالث: تفريقه منجماً بحسب الحوادث، وإن كانت أسانيد هذا الرأي كلها صحيحة؛ لأنّ هذه التنزلات المذكورة من عالم الغيب الذي لا يؤخذ فيه إلا بما تواتر يقيناً في الكتاب والسنة، فصحة الأسانيد في هذا القول لا تكفي وحدها لوجوب اعتقاده، فكيف وقد نطق القرآن بخلافه؟!»(39).

المناقشة والرد: لاحظنا أثناء عرض المسألة أن د. صبحي ردّ قول الجمهور لسببين:

الأول: لأن التنزلات الثلاثة من عالم الغيب الذي لا يؤخذ فيه إلا بما تواتر يقيناً في الكتاب والسنة.

الثاني: أن القرآن الكريم نطق بخلاف هذه التنزلات.

الرد عليه:

1. إن التنزلات الثلاثة التي جاءت عن ابن عباس رضي الله عنهما وإن كانت موقوفة فإن لها حكم المرفوع؛ لأنّ هذه التنزلات من الأمور الغيبية التي لا يقال فيها بالرأي، فيكون اجتهاد الصحابي فيها له حكم المرفوع، إذ لا بدّ وأن يكون قد سمعه من رسول الله ﷺ، وإلّا لما تجرأ بالقول برأيه من غير دليل.

39- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص51.

2. إن القول بأن القرآن نطق بخلاف هذه التنزلات فيه نظر؛ لأن هذه التنزلات ثابتة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: 21-22](40).

والخلاصة: أن هذه التنزلات ثبتت في القرآن لقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾، ونعلم أن القرآن متواتر الثبوت يقيناً، أما أحاديث ابن عباس رضي الله عنهما فلها حكم المرفوع، ولكثرتها فإنّ بعضها يقوي البعض الآخر فترقى إلى درجة الصحيح.

المسألة الخامسة: من هو الصحابي الذي وجد عنده أواخر سورة التوبة؟

عرض المسألة: يذكر د. صبحي أن الأمر اختلط على الرواة والمؤرخين في اسم من وجد عنده أواخر سورة التوبة فيقول في الحاشية معلقاً على رواية البخاري التي ذَكَرت أن زيد بن ثابت وجد آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري: «وفي رواية: (مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين) البرهان، 1، 234، والذي في تهذيب التهذيب (3، 140) أن خزيمة بن ثابت الأنصاري هو ذو الشهادتين، فهو غير أبي خزيمة، وفي البخاري (فضائل القرآن) أن زيداً وجد عند خزيمة هذا آية من سورة الأحزاب، فهل اختلط الأمر على الرواة والمؤرخين»(41).

المناقشة والرد: إن ما قاله د. صبحي من اختلاط الأمر على الرواة والمؤرخين ليس دقيقاً، فلقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايات فقال: «والأرجح أنّ الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة بالكنية، والذي وجد معه الآية من الأحزاب خزيمة. وأبو خزيمة قيل: هو ابن أوس بن يزيد بن أصرم مشهور بكنيته دون اسمه، وقيل: هو الحارث بن خزيمة، وأما خزيمة فهو ابن ثابت

40- انظر: د. عتر، نور الدين، التفسير وعلوم القرآن، ص232في الحاشية.

41- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص75.

ذو الشهادتين ...»(42).

المسألة السادسة: أوّل من ألف في علوم القرآن

عرض المسألة: يرى د. صبحي أن أول من ألّف في علوم القرآن محمد بن خلف بن المرزبان (ت: 309) في القرن الثالث في كتابه (الحاوي في علوم القرآن) (43).

المناقشة والرد: لقد حقق د. محمد يوسف الشُّربجي هذه المسألة، وبيّن أن كتاب ابن المرزبان هو كتاب تفسير وليس كتاباً في علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي المتعارف عليه، وإن ضخامة هذا الكتاب يجعلنا نستبعد أن يكون خاصاً في أنواع علوم القرآن المعروفة اليوم فإنه يقع في سبعة وعشرين جزءاً(44).

وبعد طول البحث والدراسة تبين للدكتور الشُّربجي أنّ أوّل من ألّف في علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي هو ابن الجوزي ت: 597هـ في القرن السادس في كتابه (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) وهو نفسه كتاب (عجائب علوم القرآن) الذي نُسب إلى ابن الأنباري(45). وإنّ ما ذكره المفهرسون في المكتبة البلدية بالإسكندرية من نسبة كتاب (عجائب علوم القرآن) إلى ابن الأنباري ليس صحيحاً، والصواب أنه لابن الجوزي، وأن من ذكر أن هذا الكتاب لابن الأنباري، لم يقف على النص المخطوط، وإنما اكتفى بما هو مذكور في بطاقة المخطوط(46).

42- العسقلاني، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب و محمد فؤاد عبد الباقي، قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، دار المطبعة السلفية: القاهرة، ط: 3، 1407هـ (8/ 630- 631).

43- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص124

44- انظر: مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية و القانونية، علوم القرآن الكريم تاريخه و تطوره وأول من ألف فيه علوم القرآن الكريم تاريخه و تطوره وأول من ألف فيه المجلد: 12، العدد الأول: 1996م، ص159.

45- المرجع نفسه، ص160.

46- المرجع نفسه، ص159.

المسألة السابعة: ما المراد من قول سيدنا عبد الله بن مسعود:﵁ (والله ما نزلت آية إلا وأنا أعلم فيم نزلت)؟

عرض المسألة: يرى د. صبحي أن المراد من قول ابن مسعود ﵁ المبالغة، لأنه ليس لكل آية سبب نزول، أو أن بعض الرواة تزيّد على الصحابي الذي نقل عنه(47).

المناقشة والرد: يقول د. نور الدين رداً على د. صبحي الصالح: «وهذا عجيب في فهم كلام الصحابة ثمّ في نقده، فإن هذا القول لا يعني أبداً أن لكل آية سبباً، بل المراد إن كان لها سبب فهو يعلمه، وذلك بحسب ما رآه باجتهاده في تتبع أسباب النزول، ثم كيف يظن بالرواة تزيّد وهم هنا في هذه الرواية ليسوا من عامة الناس، بل من الثقات الأثبات لقد كان ذلك يوجب على الأستاذ الناقد إعادة النظر في فهم النص ومقصده الحقيقي»(48).

المسألة الثامنة: هل لفظة العمر ترادف سن الأربعين في اللغة؟

عرض المسألة: ذكر د. صبحي في التمهيد لفصل المكي والمدني بأن بعض المفسرين يجزمون بأن لفظة (العُمْر) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: 16] ترادف سن الأربعين على وجه اليقين ويحيل في الحاشية إلى تفسير الطبري ثم يقول: بأن المفسرين خلطوا بتفسيرهم هذا بين مدلول اللغة وواقع التاريخ(49).

المناقشة والرد:

أ. إن الإمام الطبري عندما بين بأن عمر النبي ﷺ، كان أربعين سنة قبل البعثة لم يذكر بأن سن الأربعين ترادف لفظ العمر في اللغة، وإليك قول الطبري: «فقد لبثت فيكم عمراً من قبله يقول: فقد لبثت فيكم أربعين سنة من قبل أن أتلوه

47- انظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص132، 133.

48- د. عتر، نور الدين، القرآن الكريم و الدراسات الأدبية، ص55.

49- انظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص164.

عليكم ... »(50) ثم يروي عن قتادة هذا التفسير فيقول: « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قوله: ... فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون لبث أربعين سنة »(51).

ب. ثم إن ما ذكره الإمام الطبري من أن عمر النبي ﷺ عند بعثته كان أربعين سنة هو المشهور في كتب السيرة النبوية، فقد جاء في سيرة ابن هشام: « قال ابن إسحاق: فلما بلغ محمد ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين، وكافةً للناس بشيراً »(52) فلا يمكننا إنكار أن لفظ العمر في الآية يفسر بأربعين سنة، وليس الاعتماد بذلك على أن لفظة العمر في اللغة ترادف سن الأربعين بل اعتماداً على كتب السيرة التي بيّنت عمر النبي ﷺ قبل البعثة.

المسألة التاسعة: هل ضوابط المكي والمدني أمارات قطعية أم أمارات غالبة؟

عرض المسألة: يرى د. صبحي أن الضوابط التي ذكرها العلماء في معرفة المكي والمدني -إذا حُفظ ما استثني منها جانباً- فهي أمارات قطعية لا تتخلف، وأن القول بأنها أمارات غالبة لا داعي له(53).

المناقشة والرد: إنّ طريق معرفة المكي والمدني إما سماعي أو قياسي، فالسماعي منها يمكن الحكم بقطعيته، أما الطريق الثاني فقد دخل فيه الاجتهاد فلا يمكن الحكم بقطعيته، وخير شاهد على ما نقول قول د. صبحي: وإذا كان في كل من المكي والمدني آيات مستثناة، فمن العلماء من اعتمد في استثنائها على الاجتهاد دون النقل(54).

فقول د. صبحي يؤكد بأن هناك في السور المكية والمدنية آيات مستثناة عن

50- الطبري، الإمام أبي جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة: بيروت، لبنان، 1412هـ 1992م، (11/ 67).

51- المرجع نفسه، (11/ 68).

52- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده: مصر، 1355هـ 1936م، (1/ 249).

53- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص 182، 183.

54- المرجع نفسه، ص 179

طريق الاجتهاد فإذاً لا يمكن الحكم بقطعية هذه الأمارات.

المسألة العاشرة: تقسيم القرآن الكريم إلى ست مراحل ثلاث في مكة وثلاث في المدينة

عرض المسألة: قسم د. صبحي سور القرآن الكريم اعتماداً على المنهج التاريخي الزمني إلى ثلاث مراحل: ابتدائية، ومتوسطة، وختامية.

المناقشة والرد: لا يمكننا تقسيم القرآن الكريم على الطريقة التي ذكرها د. صبحي بسبب وجود الاختلاف في مكيّة بعض السور أو مدنيتها، فبناءً على تقسيمه سنجد أن بعض السور يمكن أن تدخل في المراحل التاريخية المكية ويمكن أن تدخل في المراحل المدنية وهذا يؤدي إلى القول بأن موضوع السورة المختلف في مكيتها ومدنيتها يمكن حمله على المكي وعلى المدني بآنٍ واحد، وهنا يظهر لنا ضعف هذه الطريقة في التقسيم.

أضف إلى ذلك أن القول بتقسيم القرآن إلى مراحل قولٌ خطير يؤدي إلى فتح الباب أمام المستشرقين لتحقيق ما يرمون إليه من القول بأن القرآن خاص ببيئته وعصره جاء في كل مرحلة ليعالج ما كان فيها فهو خاص بالمخاطبين في ذلك العصر، ولا يصلح أن يكون لهذا العصر الذي نعيشه.

المسألة الحادية عشرة: مناقشة د. صبحي في أنواع النسخ

عرض المسألة: يرى د. صبحي أن الولوع باكتشاف النسخ أوقع الكتّاب في أخطاء منهجية حتى وصلت بهم الجراءة إلى القول بأن من أنواع النسخ، نسخ تلاوة آيات معينة إما مع نسخ أحكامها وإما دون نسخ أحكامها، ويقول: بأن ما ذكروه في الأمثلة هي أخبار آحاد، وأخبار الآحاد ظنية والقرآنية لا تثبت إلا بالتواتر(55).

المناقشة والرد: يُرَدُّ على د. صبحي من وجوه:

1. أجمع القائلون بالنسخ من المسلمين على وقوع نسخ الحكم والتلاوة

55- انظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص 265.

جميعاً(56) فإنكاره لهذا النوع إنكار للإجماع.

2. إن الأخبار التي ذُكرت كأمثلة على النسخ حكماً وتلاوةً أو النسخ تلاوة دون الحكم، أخبار صحيحة وإن كانت موقوفة فإن لها حكم المرفوع لأن مثلها لا يقال بالرأي، بل لابد فيه من توقيف(57).
3. أما قوله بأن القرآنية لا تثبت إلا بالتواتر وهنا الأخبار ظنية لأنها أخبار آحاد، فيجاب عنه: بأن ثبوت نسخ شيء، وثبوت نزول القرآن شيء آخر، فثبوت النسخ يكفي فيه الدليل الظني بخبر الآحاد أما ثبوت نزول القرآن فهو الذي يشترط فيه الدليل القطعي بالخبر المتواتر، والذي معناه ثبوت النسخ لا ثبوت القرآن فيكفي فيه أخبار الآحاد(58). ونرى د. صبحي يوافق قولنا عند قوله: فإنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ أو عن صحابي يقول: «آية كذا نسخت كذا»(59) فقوله: «عن صحابي» يبين لنا بأن د. صبحي يقرُّ في هذا الموضع بثبوت النسخ بخبر الآحاد.

المسألة الثانية عشرة: هل للرسم العثماني مزايا خفية؟

عرض المسألة: يرى د. صبحي أن الزرقاني تكلف تكلفاً ظاهراً عندما جعل من مزايا الرسم العثماني دلالته على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة (أَيْد) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47] إذا كتبت ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء(60).

المناقشة والرد: إنّ الذي حمل د. صبحي على إنكار هذه المعاني هو رفضه الشديد للقول بالتوقيف في الرسم العثماني فلو أنه سلم بهذه المعاني الدقيقة لألجأه ذلك إلى القول بتوقيف هذا الرسم لأنه يلزم من ذلك أن يكون الله عز

56- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، (2 / 11)

57- المرجع نفسه.

58- القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، ص 217.

59- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص 272.

60- انظر: المرجع نفسه، ص 277

وجل أمر جبريل بإخبار الرسول ﷺ بكتابة هذه الكلمة بهذا الرسم في موضع وبرسم آخر في موضع آخر، فإذاً رسم حروف الكلمة فيه حكمة ومقصد لله تعالى، فلا بدّ إذاً من القول بتوقيف الرسم لئلا ينتفي حصول مراد الله عز وجل. ولعلَّ د. صبحي يعلل زيادة حرف أو إنقاصه في موضع دون موضع آخر بكتابة الكاتبين وكيفية نطقهم للحروف فقد علّق في الحاشية بعد أن ذكر قول الزرقاني في تعليل حذف حرف الواو في آيات كثيرة بقوله: «والتعليل الطبيعي لهذا كله أن الكتبة لاحظوا النطق فقط، فالواو تسقط في جميع الآيات في النطق»(61).

المسألة الثالثة عشرة: هل الرسم العثماني توقيفي أم اصطلاحي؟

عرض المسألة: يتبنى د. صبحي قول العز بن عبد السلام في حكم الرسم العثماني فيقول: «بل نأخذ برأي العز بن عبد السلام الذي يقول: لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة، لئلا يؤدي إلى دروس العلم ... الخ» ثم يعلق على قول العز بن عبد السلام قائلاً: «وملخص هذا الرأي الأخير أن العامة لا يستطيعون أن يقرؤوا القرآن في رسمه القديم، فيحسن بل يجب أن يكتب لهم بالاصطلاحات الشائعة في عصرهم، ولكن هذا لا يعني إلغاء الرسم العثماني القديم؛ لأن في إلغائه تشويهاً لرمز ديني عظيم اجتمعت عليه الكلمة، واعتصمت به الأمة من الشقاق، ففي الأمة دائماً علماء يلاحظون هذه الفروق الضئيلة في طريقة الرسم العثماني، ومن الممكن -مع ذلك- كما اقترحت مجلة الأزهر أن ينبه في ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على ما عسى أن يكون فيها من الألفاظ المخالفة للاصطلاح الحديث في الخط والإملاء».

المناقشة والرد: يتبين لنا من قول د. صبحي أنه فصّل في حكم الرسم العثماني فقال بوجوب كتابة المصحف بالاصطلاحات الشائعة بالنسبة للعوام خشية اللبس والخلط، أما بالنسبة للخواص وهم علماء الأمة فنبقي لهم الرسم العثماني لمعرفتهم الفروق فيه.

والمتأمل يلاحظ ضعف ما ذهب إليه د. صبحي، فإنه لو قلنا بوجوب كتابة

61- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن.

المصحف بالاصطلاح الإملائي الشائع لكل عصر لأدى هذا إلى تغيير خط المصحف من عصر لآخر، وضياع احترام الرسم العثماني الذي توارثته الأمة وتلقته بالقبول، وربما أدى إلى حصول فتنة في البلاد الإسلامية، وأما قول العز بن عبد السلام: «لئلا يؤدي إلى دروس العلم» ففيه نظر؛ لأنّ من يعتاد القراءة في المصحف يألف ذلك، ويفهم الفوارق الإملائية بالإشارات الموضوعة على الكلمات فتتلاشى الصعوبة التي تظهر في بداية الأمر لطالب العلم(62). والأولى القول بأن الرسم العثماني توقيفي، ولكن تجوز مخالفته عند كتابة الآيات من الطلاب في دروس العلم وأقوى دليل على جوازه الوقوع.

المبحث الخامس: المحاسن والمآخذ على كتابه

أهم المحاسن

1. الأمانة والدقة العلمية فإنه يعزو كل قول إلى قائله وكل فكرة إلى الكتاب الذي استفادها منه، فنلاحظ أن كتابه يفيض بالإحالات التي يوردها في حاشية كل صفحة.
2. اهتمامه بالرد على شبهات المستشرقين في كل فصل من فصول كتابه.
3. يورد أقوال العلماء واختلافاتهم ويبين أدلتهم ويرجح فيما بينها.
4. عنايته بالترجمة لمعظم الأعلام التي وردت في كتابه.
5. افتتاح معظم فصول كتابه بتمهيد للنوع الذي سيذكره بحيث يوصل القارئ من خلاله إلى صلب الموضوع دون شعوره بهذه النقلة من التمهيد إلى الموضوع الرئيس في النوع الذي يعرضه، كالتمهيد الذي عرضه في فصل (أسباب النزول) وغير ذلك.
6. أسلوبه الأدبي المشرق وسهولة عبارته، وأكثر المواضع التي يظهر فيها ذلك الإعجاز في نغم القرآن.

62- انظر: القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، ص 133، 134.

7. كثرة التنبيهات إلى أخطاء الأقدمين أو إلى نقل العلماء عن بعضهم من غير عزو:

مثال الأول: تنبيهه إلى الأخطاء والمغالطات التي وقع بها من صنّف في أسباب النزول من الأقدمين كالواحدي عند ذكره لسبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: 114]. ومثال الثاني: تنبيهه إلى أن الزركشي أخذ عبارة أبي شامة المقدسي من غير عزو إليه، وذلك في الحكمة من نزول القرآن منجماً(63). وتنبيهه في الحاشية إلى أن الزرقاني أخذ عن ابن الجزري في ترجيح مذهب أبي الفضل الرازي في معنى الأحرف السبعة من غير عزو إليه(64).

8. يذكر في نهاية غالب الفصول خاتمة تبين أهمية الموضوع الذي عرضه كالخاتمة في فصل الإعجاز في نغم القرآن، أو تُظهر نتيجة البحث كالخاتمة في فصل الوحي.

ما يُؤخذ على كتابه

إن ذكر بعض المآخذ على كتاب د. صبحي لا ينقص من قيمته العلمية التي برزت من خلال تأثر كبار العلماء في الأخذ منه، فمن أهمها:

1. إسهابه في تفصيل كثير من المسائل في عدة مواضع، كذكره نماذج كثيرة من السور التي قام بتطبيقها على المنهج الزمني الذي اعتمده في تقسيم القرآن إلى ست مراحل حيث بلغ بتفصيله 46 صفحة.
2. تأثره بأقوال المستشرقين كقوله بأن كلمة (القرآن) وكلمة (الكتاب) أصلها آرامي.
3. عدم عنونة الفقرات في معظم الفصول، وعدم تفنيده للشبهات: فقد وضع هذه العناوين في فهرس الموضوعات وكان من الأولى لو وضعها داخل كل فصل.
4. قد يُغفل التوثيق في بعض الأحيان، كما فعل عند تعريف القرآن بمعناه

63- انظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص 53، في الحاشية.

64- انظر: المرجع نفسه، ص 116.

الاصطلاحي فقد أخذه عن الزرقاني، ولم يوثّق ذلك(65)، أو يترجم للأعلام من غير أن يذكر المرجع الذي استفاد منه كترجمته لليزيدي(66).

الخاتمة

وختاماً لهذا البحث فإننا نخلص إلى أهم النتائج والمقترحات الآتية:

1. إن د. صبحي لا يلزم نفسه بأقوال جمهور العلماء فهو ليس مجرد ناقل بل له آراؤه الخاصة التي يجتهد فيها ويدعمها بالدليل.
2. تأثره ببعض المستشرقين فقد نقل عنهم، وتبنّى أقوالهم في بعض الأحيان.

هذه هي النتائج التي توصلت إليها فإن أصبت بها فمن الله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان، والله وليّ التوفيق.

أهم المقترحات التي جاءت بها هذه الدراسة: العمل على إضافة ملحق لكتاب د. صبحي يتضمن بعض الأنواع المهمة التي أغفلها المؤلف في كتابه كالمعرب في القرآن الكريم، وترجمة القرآن، وخاصة أن كتابه كان يدرس في جامعة الآداب في دمشق، وبحث المعرب له صلة وثيقة بأصحاب هذا الاختصاص. والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أفضل الخلق وسيد المرسلين محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين.

65- انظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، (1 / 12).

66- انظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص250.

المصادر

1. إتقان البرهان في علوم القرآن، للدكتور فضل حسن عباس دار النفائس: الأردن، ط: 2، 1430هـ 2010م، الجزء الأول.
2. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جلال الدين عبد الرحمن، وبالهامش القاضي أبي بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده: مصر، ط: 3، 1370 هـ 1951 م، الجزء الأول.
3. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، جمال حمدي الذهبي، وإبراهيم عبد الله الكردي، دار المعرفة: بيروت، لبنان، ط 2، 1415هـ 1994 م، الجزء الأول.
4. تتمة الأعلام للزركلي لمحمد خير رمضان يوسف، ويليه المستدرك الأول والثاني، دار ابن حزم: بيروت، لبنان، ط: 1422هـ 2002 م، المجلد الأول.
5. التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية: طهران، ط: 2، الجزء السادس عشر والجزء الثامن والعشرون.
6. التفسير وعلوم القرآن، للدكتور نور الدين عتر، منشورات جامعة دمشق، ط 3، 1417، 1418 / 1997، 1998 م.
7. جامع البيان في تفسير القرآن، الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة: بيروت، لبنان، 1412هـ 1992م، الجزء الحادي عشر.
8. ذيل الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لأحمد العلاونة، دار المنارة، ط: 1، 1418 هـ- 1998 م.
9. السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده: مصر، 1355هـ 1936م، الجزء الأول.
10. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير: دمشق، ط: 1، 1406، الجزء الأول والثاني والثالث والرابع.
11. فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن

حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، دار المطبعة السلفية: القاهرة، ط: 3، 1407هـ الجزء الثامن.

12. القرآن الكريم والدراسات الأدبية، للدكتور نور الدين عتر، المطبعة الجديدة: دمشق، 1404، 1405 هـ 1984، 1985 م.
13. مباحث في علوم القرآن، للدكتور صبحي الصالح، مطبعة الجامعة السورية، ط: 1، 1377 هـ 1958 م، ودار العلم للملايين: بيروت، ط17، 1988 م.
14. مباحث في علوم القرآن، للدكتور منّاع القطان، مؤسسة الرسالة، ط: 35، 1418 هـ 1998 م.
15. مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد: 12، العدد الأول: 1996.
16. مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، دار القلم: دمشق، الدار الشامية: بيروت، ط: 1، 1416هـ 1995م.
17. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية، ط 3، 1372 هـ الجزء الأول والثاني.
18. من روائع القرآن، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، ط 3، 1392 هـ 1972 م.